قصص جحا

كامل كيلاني

سارق الحمار

وقصص أخرى



نشر

الشركة التونسية للتوزيع

قصص جحا

كامل كيلاني

سَارقُ الحمَار
وقصص أخرى

نشر
الشركة التونسية للتوزيع

مُقَدِّمَةٌ[1]

وَلَدِى « رَشادُ » :

وَعَدْتُكَ بِهٰذِهِ الْقِصَصِ الْجُحَوِيَّةِ الشَّائِقَةِ مُنْذُ أَعْوامٍ .

ظَلِلْتَ تَسْتَعْجِلُنِى إِنْجازَها يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَشَهْرًا بَعْدَ شَهْرٍ ، وَعامًا بَعْدَ عامٍ .

لَمْ أَنْسَ الْوَعْدَ .

لَمْ أُقَصِّرْ فِى تَلْبِيَةِ رَغْبَتِكَ الْمُحَبَّبَةِ إِلَىَّ .

حالَتْ عَوائِقُ جَمَّةٌ دُونَ تَحْقِيقِ هٰذِهِ الْغايَةِ .

الْمَخْطُوطُ الْجُحَوِىُّ الْقَدِيمُ - الَّذِى أَظْفَرَنِى بِهِ حَظُّكَ السَّعِيدُ - لَمْ يَكُنْ كامِلًا .

كانَ لِتَقادُمِ الزَّمَنِ عَلَيْهِ أَثَرٌ كَبِيرٌ : دَبَّ إِلَيْهِ الْبِلَى . أَضاعَ ما أَضاعَ مِنْ صَفَحاتِهِ ، وَمَحا ما شاءَ مِنْ سُطُورِهِ وَعِباراتِهِ ، وَطَمَسَ الْكَثِيرَ مِنْ فِقْراتِهِ وَكَلِماتِهِ .

لَمْ يَثْنِ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِى . لَمْ يَقِفْ حائِلًا دُونَ إِنْجازِ وَعْدِى . اِسْتَعَنْتُ بِالْمُثابَرَةِ والصَّبْرِ . لَمْ أَدَّخِرْ جُهْدًا فِى تَحْقِيقِ الْمَخْطُوطِ الْفَرِيدِ ، الَّذِى كَتَبَهُ « طارِقُ بْنُ بَهْلَلٍ » .

---

(١) نثبت مقدمة الطبعة الأولى ، كما أثبتناها فى الطبعات السابقة .

لَعَلَّكَ لَمْ تَنْسَ هٰذا الِاسْمَ !

إنهُ ابْنُ أَخِي « جُحا » ـ كَما قُلتُ لَكَ ـ فِي مُقَدِّمَةِ « بِرْمِيلِ الْعَسَلِ » : تِلْكَ الْقِصَّةِ الشَّائِقَةِ الَّتِي ظَفِرَتْ بِإِعْجابِكَ ، وَنالَتْ مَوْفُورَ رِضاكَ .

بَقِيَ عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّنِي تَوَخَّيْتُ الامانَةَ ـ جُهْدَ طاقَتِي ـ فِي نَقْلِ هٰذِهِ الْقِصَصِ الْجُحَوِيَّةِ وَتَمْحِيصِهِ

لا أَكْتُمُ أَنَّنِي أَضَفْتُ إِلَيْها أَشْتاتًا مِنْ رَوائِعِ الْقِصَصِ الْمَنْسُوبِ إِلَى « أَبِي الْغُصْنِ جُحا » فِي مُخْتَلِفِ اللُّغاتِ مِنْ شَرْقِيَّةٍ وَغَرْبِيَّةٍ .

سَتَرَى فِي جَدِيدِ ما أَضَفْتُهُ مِنْها إِلَى الْمَخْطُوطِ الْجُحَوِيِّ عَزاءً عَمَّا أَضاعَ الزَّمَنُ مِنْ صَفَحاتِهِ ، وَعِوَضًا (بَدِيلًا) عَمَّا طَمَسَ الْبِلَى (مِمَّا غَيَّرَ الْقِدَمُ ، وَطُولُ الْعَهْدِ) مِنْ طُرَفِهِ وَحِكاياتِهِ .

عَلَى أَنَّ هٰذِهِ الإِضافاتِ لَمْ تَكُنْ ـ فِي أَغْلَبِ الأَمْرِ ـ إِلَّا صُوَرًا قَرِيبَةً أَوْ مُكَرَّرَةً مِنَ الصَّفَحاتِ الْمَفْقُودَةِ أَوِ الْمَطْمُوسَةِ ، تَناقَلَها طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤَلِّفِينَ فِي الشَّرْقِ ، وَتَرْجَمَها بَعْضُ كُتّابِ الْغَرْبِ .

لا تَنْسَ أَنَّ إِعْجابَ الْقُدَماءِ بِطَرائِفِ « جُحا » حَفَزَهُمْ إِلَى نَقْلِ الْكَثِيرِ مِمَّا حَواهُ هٰذا الْمَخْطُوطُ النَّفِيسُ ، حِينَ كانَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ـ فِيما سَلَفَ مِنَ الْعُهُودِ ـ كامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ ...

شاءَ اللهُ أَنْ يُكَلِّلَ جُهْدِي بِالنَّجاحِ .

حالَفَنِيَ التَّوْفيق فِي إظْهارِ ما طَمَسَ مِنْ سُطُورِ الْمَخْطُوطِ الْجُحَوِيِّ ، واسْتِكْمالِ ما نَقَصَ مِنْ أَقاصِيصِهِ الشَّائِقَةِ .

تَحَقَّقَ الْأَمَلُ الْبَعِيدُ . تَمَّ لِي ما أُرِيدُ . عادَتِ الْفِقَراتُ الْمَفْقُودَةُ إلَى مَكانِها ، واطْمَأَنَّتْ إلَى أَخْدانِها . تَأَلَّفَتْ مِنْ أَشْتاتِها طاقَةٌ نَضِيرَةٌ مِنَ الزَّهَرِ ، طَيِّبَةُ الشَّذا ، مُتَفاوِحَةُ الْعِطْرِ . . .

بَقِيَ فِي نَفْسِي أَمَلٌ وَرَجاءٌ يُراوِدانِها بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ .

أَمَلٌ وَرَجاءٌ يُسْعِدُنِي أَنْ أَتَوَجَّهَ بِهِما إلَيْكَ .

أَمَلٌ فِي أَنْ تَعْثُرَ - فِي قابِلِ أَيَّامِكَ - عَلَى مَخْطُوطٍ جُحَوِيٍّ أَوْفَى وَأَكْمَلَ مِنَ الْمَخْطُوطِ الَّذِي عَثَرْتُ أَنا عَلَيْهِ .

وَرَجاءٌ فِي أَنْ تَقْتَدِيَ بِي فِيما صَنَعْتُ ، فَتُقْبِلَ عَلَى تَحْقِيقِ ذٰلِكَ الْمَخْطُوطِ وَتَمْحِيصِهِ ، وَمُقابَلَةِ نُصُوصِهِ بِغَيْرِها مِنَ النُّصُوصِ الْجُحَوِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، والْمُبادَرَةِ بِنَشْرِها وَإذاعَتِها عَلَى أَبْناءِ جِيلِكَ الْقادِمِ : مَتَى كَبِرَتْ سِنُّكَ ، واكْتَمَلَتْ ثَقافَتُكَ .

وَفَّقَكَ اللهُ إلَى إسْعادِ أَبْناءِ جِيلِكَ ، وَإدْخالِ الْبَهْجَةِ عَلَى نُفُوسِهِمْ ؛ فَلَيْسَ أَبْهَجَ لِلنَّفْسِ مِنْ جَلْبِ السَّعادَةِ إلَى النَّاسِ .

حَقَّقَ اللهُ الْبَعِيدَ مِنْ آمالِكَ الرَّشِيدَةِ ، وَرَغَباتِكَ الْمَجِيدَةِ .

وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ ، وَلِكُلِّ مُجْتَهِدٍ نَصِيبٌ .

كامل كيلانى

(المحرم ١٣٦٢ هـ يناير سنة ١٩٤٤ م)

الْجَزَّارُ والسَّاحِرُ

١ – فِي زَمَنِ الطُّفُولَةِ

قالَ «أبُو الْغُصْنِ: عَبْدُ اللهِ دُجَيْنُ بن ثابِتٍ» الْمُلَقَّبُ بِـ «جُحا»:

كُنْتُ فِي زَمَنِ الطُّفُولَةِ الْباكِرِ، حِينَ وَقَعَتْ حَوادِثُ هٰذِهِ الْقِصَّةِ لِلسَّيِّدِ: «أَبِي عَوْفٍ».

كانَ «أبُو عَوْفٍ» جَزَّارًا أَمِينًا، مَعْرُوفًا بَيْنَ النَّاسِ بِالْوَرَعِ والتَّقْوَى، مَوْصُوفًا بِالْبِرِّ والْإِحْسانِ.

كانَ مِنْ جِيرانِنا الْأَقْرَبِينَ.

لَمْ يَلْبَثْ أَنْ ذاعَ صِيتُهُ، واسْتَفاضَتِ الْأَحادِيثُ الْحَسَنَةُ عَمَّا يُسْدِيهِ إِلَى الْفُقَراءِ والْمُحْتاجِينَ مِنْ فُنُونِ الْبِرِّ، سِرًّا وَعَلانِيَةً.

٢ – شَيْخٌ وَقُورٌ

ذا صَباحٍ:

وَفَدَ عَلَى «أَبِي عَوْفٍ» شَيْخٌ وَقُورٌ، رائِعُ السَّمْتِ، مَهِيبُ الطَّلْعَةِ.

كانَ وَجْهُ الشَّيْخِ يَتَأَلَّقُ بِشْرًا وَنُورًا.

كانَ الشَّيْبُ يَكْسُوهُ وَقارًا وَجَلالًا، وَيَزِيدُهُ بَهاءً وَجَمالًا.

كانَ مَنْ يَراهُ - أَوَّلَ وَهْلَةٍ - لا يُخامِرُهُ الشَّكُّ فى أَنَّهُ أَحَدُ الصَّفْوَةِ الْمُخْلَصِينَ ، مِنْ عِبادِ اللهِ الصَّالِحِينَ .

كانَ يَسْتَأْنِى فِى مِشْيَتِهِ ، وَهُوَ يَقْتَرِب مِنْ دُكَّانِ الْجَزَّارِ .

٣ — الدِّينارُ الأَوَّلُ

فَرِحَ الْجَزَّارُ حِينَ رَأَى الشَّيْخَ الْوَقُورَ يَدْنُو مِنْهُ ، وَيُحَيِّيهِ فِى أَدَبٍ وَحَياء .

اِسْتَبْشَرَ الْجَزَّارُ خَيْرًا بِمــا رَأَى .

رَحَّبَ بِمَقْدَمِ الشَّيْخِ الْوَقُورِ . خَفَّ إِلَيْهِ أَقْبَلَ عَلَيْهِ .

رَدَّ تَحِيَّتَهُ فِى أَدَبٍ وَوَقارٍ ، وَإِجْلالٍ وَإِكْبارٍ .

بادَرَ إِلَى يَدِهِ يَلْثِمُها ، وَيَلْتَمِسُ مِنْهُ الدُّعاءَ الْمُسْتَجابَ .

سَأَلَهُ مُتَوَدِّدًا عَمّا يُرِيدُ .

* * *

اِبْتَهَجَ الشَّيْخُ بِما رَأَى مِنْ حَفاوَةٍ وَتَكْرِيمٍ ، وَإِجْلالٍ وَتَعْظِيمٍ .

هَمَسَ فِى أُذُنِ التَّاجِرِ بِما اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ عَزْمُهُ مِنْ بَذْلٍ كَرِيمٍ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَتَعَهُّدٍ دائِمٍ لِلْمُعْوِزِينَ ؛ قِيامًا بِما فَرَضَهُ اللهُ مِنْ زَكاةٍ عَلَى القادِرِينَ ، وَأَداءً لِما أَوْجَبَهُ مِنْ حَقٍّ لِلْفُقَراء والْمَساكِينِ .

طَلَبَ مِنَ الْجَزّارِ أَنْ يُعِدَّ لَهُ - كُلَّ صَباحٍ - خَرُوفًا مَذْبُوحًا يَشْتَرِيهِ مِنْهُ بِدِينارٍ ؛ لِيُفَرِّقَ لَحْمَهُ عَلَى الْفُقَراءِ والْمَساكِينِ .

أَكْبَرَ الْجَزّارُ صَنِيعَ الْمُحْسِنِ الْعَظِيمِ .

أَعْطاهُ الشَّيْخُ دِينارًا لامِعًا مُشْرِقَ الْجِدَّةِ .

انْتَهَزَ الْجَزّارُ هٰذِهِ الْفُرْصَةَ لِلتَّبَرُّكِ بِدَنانِيرِ الشَّيْخِ الصّالِحِ .

عَزَمَ عَلَى أَنْ يَدَّخِرَ دَنانِيرَهُ الْجَدِيدَةَ اللّامِعَةَ ، فَلا يَمَسَّها قَبْلَ انْقِضاءِ الْعامِ .

قَرَّرَ أَنْ يَشْتَرِيَ مِنْها فِي أَوَّلِ الْعامِ الْجَدِيدِ - بِما يَدَّخِرُهُ - ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ ماشِيَةٍ وَأَغْنامٍ .

كانَ يُسْقِطُ - كُلَّ صَباحٍ - ما يَأْخُذُهُ مِنَ الدَّنانِيرِ الْجَدِيدَةِ فِي دُرْجٍ مُقْفَلٍ ، مِنْ خِلالِ ثَقْبٍ صَغِيرٍ فِي أَعْلاهُ .

٤ — الدَّنانِيرُ الزّائِفَةُ

جَرَى كِلاهُما عَلَى عادَتِهِ : الشَّيْخُ يَشْتَرِي - كُلَّ يَوْمٍ - خَرُوفًا بِدِينارٍ .

الْجَزّارُ يُسْقِطُ دِينارَ الشَّيْخِ فِي دُرْجِهِ الْمُقْفَلِ .

مَرَّتِ الْأَيّامُ والْأَسابِيعُ والشُّهُورُ .



أَشْرَفَ الْعامُ عَلَى نِهايَتِهِ

فَتَحَ التّاجِرُ دُرْجَ النُّقُودِ الْمُدَّخَرَةِ .

ما أَعْجَبَ ما رَأَى !

شَدَّ ما فَزَّعَهُ وَرَوَّعَهُ أَلّا يَجِـــدَ فِي صُنْدُوقِهِ دِينارًا واحِـــدًا .

لَمْ يَكُنْ فِي الصُّنْدُوقِ إِلَّا أَوْراقٌ صُفْرٌ مُسْتَدِيرَةٌ - بِعَدَدِ أَيّامِ السَّنَةِ - مَكانَ الدَّنانِيرِ الصُّفْرِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي كانَ يَأْخُذُها مِنَ الشَّيْخِ كُلَّ صَباحٍ .

٥ – اِفْتِضاحُ السِّرِّ

تَبَيَّنَ الْجَزّارُ الْآنَ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ . أَدْرَكَ حَقِيقَةَ الشَّيْخِ لَمْ يَعُدْ يُخامِرُهُ شَكٌّ فِي خِداعِ السّاحِرِ الْأَفّاكِ الْأَثِيمِ ، الَّذِي كانَ يَخْتَصُّهُ بِالْإِجْلالِ وَالتَّعْظِيمِ .

الْآنَ عَرَفَ أَنَّهُ لِصٌّ كَبِيرٌ ، مُدَلِّسٌ خَطِيرٌ ، خادِعٌ شِرِّيرٌ .

لَنْ يُفْلِتَ الْخادِعُ الْجارِمُ مِنَ الْعِقابِ . لا بُدَّ مِنَ الِانْتِقامِ .

الْجَزّارُ يَتَرَقَّبُ قُدُومَهُ . الْجَزّارُ يَتَرَبَّصُ بِهِ .

نارُ الْغَضَبِ تَلْتَهِبُ فِي صَدْرِهِ . مَرارَتُهُ تَكادُ تَنْشَقُّ مِنَ الْغَيْظِ .

ما بالُ الزَّمَنِ يُبْطِئُ فِي سَيْرِهِ ! ما بالُ الضَّجَرِ يَشْتَدُّ بِهِ !

ما بالُ الدَّقائِقِ تَمُرُّ كَأَنَّها - لِطُولِها - ساعاتٌ .

أَيْنَ الشَّيْخُ ؟ ما بالُهُ يَتَأَخَّرُ عَنْ مَوْعِدِهِ ؟

لِماذا أَخْلَفَ عادَتَهُ فِي الْحُضُورِ ؟



هَا هُوَ ذا الشَّيْخُ يَحْضُرُ فِي مَوْعِدِهِ !

لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ مَوْعِدِ كُلِّ يَوْمٍ .

خُيِّلَ إِلَيْهِ الضَّجَرُ أَنَّهُ تَأَخَّرَ .

الْآنَ يَرَاهُ .

هَيْهَاتَ أَنْ يُفْلِتَ مِنْ عِقَابِهِ !



أَسْرَعَ الْجَزَّارُ إِلَى غَرِيمِهِ صاخِبًا .

اِنْدَفَعَ إِلَيْهِ يَصُبُّ اللَّعَناتِ ، ويُمْطِرُهُ سَيْلًا مِنَ الشَّتائِمِ والإهاناتِ .

مُفاجَأَةٌ لَمْ يَتَوَقَّعْها السَّاحِرُ الأَفَّاكُ .

اِمْتُقِعَ وَجْهُ السَّاحِرِ ، بَعْدَ أَنْ وَضَحَ أَمْرُهُ ، وافْتُضِحَ سِرُّهُ .

٦ — عِنادُ التَّاجِرِ

اِقْتَرَبَ السَّاحِرُ مِنَ الْجَزَّارِ .

هَمَسَ فِي أُذُنِهِ مُسْتَعْطِفًا ، واسْتَغْفَرَهُ مِنْ ذَنْبِهِ مُتَلَطِّفًا

سَأَلَهُ أَنْ يُلَطِّفَ مِنْ حِدَّتِهِ ، وَيَتَجاوَزَ عَنْ زَلَّتِهِ .

ضَرَعَ إِلَيْهِ أَنْ يَكُفَّ عَنْ إهانَتِهِ .

أَصَمَّ الْجَزَّارُ أُذُنَيْهِ عَنْ كُلِّ رَجاءٍ

أَعادَ الشَّيْخُ رَجاءَهُ أَنْ يَخْفِضَ مِنْ صَوْتِهِ ؛ حَتَّى لا يُسِيءَ إِلَى سُمْعَتِهِ . وَعَدَ الْجَزَّارَ بِمُكافَأَةٍ جَزِيلَةٍ . ظَلَّ يُمَنِّيهِ الأَمانِيَّ عَلَى غَيْرِ طائِلٍ .

تَضاعَفَ سُخْطُ الْجَزَّارِ . أَصَرَّ عَلَى الانْتِقامِ . زادَتْهُ ضَراعَةُ الْمُجْرِمِ تَمادِيًا فِي صِياحِهِ وَتَشْهِيرِهِ ، وَإِمْعانًا فِي وَعِيدِهِ وَنَكِيرِهِ .

٧ — إِنْذارُ السَّاحِرِ

أَقْبَلَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ . عَبَثًا حاوَلُوا أَنْ يُهَدِّئُوا مِنْ ثَوْرَةِ الْجَزَّارِ . ضاعَتْ جُهُودُهُمْ سُدًى .

ظَلَّ الْجَزَّارُ مُمْسِكًا بِتَلابِيبِ غَرِيمِهِ .

اِنْطَلَقَ فِي هِياجِهِ ، مُتَمادِيًا فِي لَجاجِهِ .

يَئِسَ الشَّيخُ مِنْ صَفحِ الْجَزَّارِ .

نَفِدَ صَبْرُهُ بَعْدَ أَنْ أَيْقَنَ بِالْفَضِيحَةِ .

لَمْ يُفْلِحِ التَّوَسُّلُ وَلا الشَّفاعَةُ . لَمْ يُجْدِ النَّدَمُ وَلا الضَّراعَةُ .

ماذا يَصْنَعُ الْخَبِيثُ بَعْدَ أَنْ صَرَّحَ الشَّرُّ ، وَكُشِفَ الْغِطاءُ وافْتَضَحَ السِّرُّ ، وَلَمْ يَبْقَ أَمامَهُ مَهْرَبٌ وَلا مَفَرٌّ .

ماذا بَعْدَ الْوَعْدِ إِلَّا الْوَعِيدُ . ماذا بَعْدَ التَّرْغِيبِ إِلَّا التَّهْدِيدُ ؟!

كَذٰلِكَ فَعَلَ السَّاحِرُ : ثارَتْ ثائِرَتُهُ . عَلا صَخَبُهُ . تَنَصَّلَ مِنْ جَرِيرَتِهِ . أَمْعَنَ فِي صَفاقَتِهِ . قَذَفَ غَرِيمَهُ بِجَرِيمَتِهِ ، رَماهُ بِشُنْعَتِهِ . تَظاهَرَ بِالْغَضَبِ . لَجَأَ إِلَى الشَّكْوَى والِاتِّهامِ . دَوَّى صَوْتُهُ مُجَلْجِلًا كالرَّعْدِ . انْطَلَقَ يَقُولُ :

« تَبًّا لَكَ مِنْ غادِرٍ لَئِيمٍ ، نَزَّاعٍ لِلشَّرِّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ !

شَدَّ ما أَفْسَدَكَ حِلْمِي وَأَعْماكَ ! وَأَضَلَّكَ صَفْحِي وَأَغْواكَ !

طالَ صَبْرِي عَلَيْكَ ؛ فَلَمْ تَزِدْ إِلَّا تَمادِيًا فِي غُرُورِكَ واسْتِهْتارًا ، وَإِمْعانًا فِي خِداعِكَ وَإِصْرارًا . »

* * *

هٰكَذا انْطَلَقَ الْخادِعُ الْخَبِيثُ يَسُبُّ « أَبا عَوْفٍ » وَيُجَرِّحُهُ فِي غَيْرِ حَياءٍ ، وَيَرْمِيهِ وَيُقَبِّحُهُ بِما هُوَ مِنْهُ بَراءٌ .

خَتَمَ السَّاحِرُ سِبابَهُ قائِلاً : «أَلا فَلْتَعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ آخِرًا ، وَأَنَّ لِلْحِلْمِ حَدًّا لا سَبِيلَ إِلَى تَجاوُزِهِ .

هأَنَذا أُنْذِرُكَ عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْحاضِرِينَ : أَنْ تُهَدِّئَ مِنْ نَزْوَتِكَ ، وَتُخَفِّفَ مِنْ حِدَّتِكَ ، وَتَكُفَّ عَنْ حَماقَتِكَ .

فَإِذا خالَفْتَنِي وَأَبَيْتَ نُصْحِي : فَضَحْتُ سِرَّكَ ، وَكَشَفْتُ سِتْرَكَ .»

هالَ الْجَزَّارَ ما سَمِعَ . رَوَّعَتْهُ صَفاقَةُ الْأَفَّاكِ .

صَرَخَ فِي دَهْشَةٍ وَحَيْرَةٍ :

«أَأَنْتَ تَكْشِفُ سِرِّي ؟ أَأَنْتَ تَفْضَحُ أَمْرِي ؟

ماذا يَسْتَطِيعُ أَفَّاكٌ مِثْلُكَ أَنْ يَزْعُمَ ؟»

أَجابَهُ السَّاحِرُ : «سَتَنْدَمُ عَلَى نَزْوَتِكَ ؛ مَتَى أَظْهَرْتُ لِلْحاضِرِينَ ما خَفِيَ مِنْ أَمْرِكَ ، وَأَطْلَعْتُهُمْ عَلَى ما بَطَنَ مِنْ سِرِّكَ .»

تَضاعَفَ غَيْظُ الْجَزَّارِ . قالَ فِي غَضَبٍ واسْتِنْكارٍ :

«ما رَأَيْتُ - كالْيَوْمِ - جارِمًا مُسِيئًا ، يُهَدِّدُ طاهِرًا بَرِيئًا !»

قالَ السَّاحِرُ :

«لَمْ يَبْقَ لَكَ عُذْرٌ بَعْدَ هٰذا الْإِنْذارِ ، فَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ !»

(يَعْنِي : أَنَّ عُذْرَهُ أَصْبَحَ واضِحًا ، بَعْدَ أَنْ حَذَّرَ غَرِيمَهُ سُوءَ الْعاقِبَةِ ، وَخَوَّفَهُ مَغَبَّتَها) .

٨ – لَحْمٌ آدَمِيٌّ

اِلْتَفَتَ الْجَزَّارُ إِلَى السَّاحِرِ .

قالَ لَهُ فِي لَهْجَةِ الْمُتَهَكِّمِ السَّاخِرِ :

« ما أَشْوَقَنِي إِلَى سَماعِ اتِّهامِكَ ! »

جَمَعَ السَّاحِرُ فُنُونَ مَكْرِهِ وَغَدْرِهِ .

قالَ مُتَوَعِّدًا : « لَنْ أَرْحَمَكَ بَعْدَ الْآنَ .

لَنْ أُفْلِتَكَ مِنَ الْعِقابِ ، عَلَى أَيِّ حالٍ

آنَ لِي أَنْ أُطْلِعَ النَّاسَ عَلَى حَقِيقَتِكَ ، وَأُعْلِنَ لَهُمْ خافِيَةَ أَمْرِكَ .

آنَ لِي أَنْ أُنَبِّهَهُمْ إِلَى ما تُلْحِقُهُ بِهِمْ مِنْ فُنُونِ أَذِيَّتِكَ وَشَرِّكَ . »

ثُمَّ انْدَفَعَ يُسائِلُ الْجَزَّارَ ، فِي تَهَكُّمٍ واسْتِنْكارٍ :

« خَبِّرْنِي ، أَيُّها الطَّاهِرُ الْبَرِيءُ :

بِأَيِّ عُذْرٍ تَعْتَذِرُ ، وَبِأَيِّ جَوابٍ تُجِيبُ ، حِينَ يَطَّلِعُ الْحاضِرُونَ عَلَى ما تُخْفِيهِ مِنْ رُءُوسِ الْآدَمِيِّينَ الَّذِينَ تَذْبَحُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ ، وَتَبِيعُ النَّاسَ لَحْمَهُمْ ، بَعْدَ أَنْ تَضَعَ رُءُوسَهُمْ فِي هٰذا الصُّنْدُوقِ ! ؟

بِأَيِّ لِسانٍ تَرُدُّ عَلَى هٰذا الِاتِّهامِ ، أَيُّها الْبارِعُ الْهُمامُ ؟



أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يَفْضَحَكَ وَيُخْزِيَكَ ، وَيَضَعَ حَدًّا لِجَرَائِمِكَ وَيُعْمِيَكَ .

شاءَتْ حِكْمَةُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ أَنْ تَنْسَى هٰذا الرَّأْسَ الآدَمِيَّ ، فَلا تُخْفِيَهُ فِي الصُّنْدُوقِ الَّذِي تَعَوَّدْتَ أَنْ تَخْبَأَ فِيهِ الرُّؤُوس الآدَمِيَّةَ كُلَّ يَوْمٍ !

أَلْقَى اللهُ عَلَيْكَ مِنْ ضُرُوبِ الْغَفْلَةِ ما أَذْهَلَكَ : فَتَرَكْتَ الرَّأْسَ الآدَمِيَّ مُعَلَّقًا عَلَى بابِ الدُّكّانِ ؛ لِيَبْقَى دَلِيلًا عَلَى جَرِيمَتِكَ ، وَشاهِدًا عَلَى وَحْشِيَّتِكَ ! »

أَيُّ فِرْيَةٍ نَطَقَ بِها السّاحِرُ الْخَبِيثُ ؟

شَدَّ ما تَفَزَّعَ النّاسُ !

كادَ الذُّهُولُ يَسْتَوْلِي عَلَيْهِمْ .

لَمْ يُصَدِّقُوا آذانَهُمْ فِيما سَمِعُوا .

ساوَرَهُمُ الشَّكُّ فِيما قالَ السّاحِرُ .

أَرادُوا أَنْ يَتَبَيَّنُوا الْحَقِيقَةَ . اِقْتَحَمُوا دُكّانَ الْجَزّارِ .

شَهِدُوا صِدْقَ ما قالَهُ الْمُفْتَرِي الأَفّاكُ .

حانَتْ مِنْهُمُ الْتِفاتَةٌ . رَأَوْا إِنْسانًا مُعَلَّقًا فِي دُكّانِ الْجَزّارِ لَمّا يُفارِقْ رَأْسُهُ جَسَدَهُ .

واحَسْرَتاهُ !

يا لَهَوْلِ ما رَأَوْا !

خُيِّلَ إِلَيْهِمْ سِحْرُ الْخَبِيثِ أَنَّ اللَّحْمَ الْمُعَلَّقَ فِي دُكّانِ الْجَزّارِ لَيْسَ لَحْمَ خِرْفانٍ ، بَلْ لَحْمُ إِنْسانٍ !

٩ — هَرَبُ السَّاحِرِ

اِشْتَدَّتْ ثَوْرَةُ الْحاضِرِينَ وَجَــزَعُهُمْ . تَضاعَفَ سُخْطُهُمْ وَفَزَعُهُمْ . هالَهُمْ ما رَأَوْا . جازَتْ عَلَيْهِمْ حِيلَةُ السَّاحِرِ .

كادَتْ مَرائِرُهُمْ تَنْشَقُّ مِنَ الْغَيْظِ .

اِنْقَلَبَتْ نِقْمَتُهُمْ عَلَى السَّاحِرِ نِقْمَةً عَلى الْجَزَّارِ .

أَوْسَعُوهُ سَبًّا وَشَتْمًا . اِنْهالُوا عَلَيْهِ ضَرْبًا وَرَكْلًا .

ظَلُّوا يَصْفَعُونَهُ بِأَكُفِّهِمْ ، وَيَرْكُلُونَهُ بِأَرْجُلِهِمْ حَتَّى أُغْمِيَ عَلَيْهِ .

فُرْصَةٌ سانِحَةٌ أَتاحَتْ لِلسَّاحِرِ الْمَكَّارِ ، سَبِيلَهُ إِلَى الْفِرارِ .

أَفْلَحَ غَدْرُ السَّاحِرِ وَمَكِيدَتُهُ ، وَنَجَحَتْ حِيلَتُهُ .

١٠ — بَراءَةُ التَّاجِرِ

سُرْعانَ ما تَناقَلَ النَّاسُ قِصَّةَ « أَبِي عَوْفٍ » .

حَضَرَ الْقاضِي عَلَى عَجَلٍ .

كانَ الْقاضِي ذَكِيًّا : كانَ يَعْرِفُ صِدْقَ « أَبِي عَوْفٍ » وَلا يَرْتابُ فِي أَمانَتِهِ .

جاءَ بِنَفْسِهِ لِيَتَثَبَّتَ مِمَّا سَمِعَ .

نَظَرَ إِلَى اللَّحْمِ الْمُمَدَّدِ . لَمْ يَجِدْ إِلَّا لَحْمَ خِرْفانٍ .

بَحَثَ عَنِ اللَّحْمِ الآدَمِيِّ . لَمْ يَعْثُرْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ . . .

اِنْكَشَفَ الْغِطاءُ . زالَ سِحْرُ السّاحِرِ الْخَبيثِ . عادَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى أَصْلِهِ .

الْآنَ تَتَجَلَّى الْحَقائِقُ سافِرَةً .

اِتَّجَهَ الْقاضِي إِلَى «أَبِي عَوْفٍ» . وَجَدَهُ لا يَزالُ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ .

بادَرَ بِإِسْعافِهِ . لَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى أَفاقَ .

أَقْبَلَ عَلَيْهِ يُؤْنِسُهُ وَيُؤَسِّيهِ ، وَيُصَبِّرُهُ وَيُسَلِّيهِ .

سَأَلَهُ عَنْ قِصَّتِهِ ، وَكَيْفَ انْتَهَى إِلَى مِحْنَتِهِ .

أَفْضَى إِلَيْهِ «أَبُو عَوْفٍ» بِكُلِّ ما حَدَثَ .

* * *

الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ، وَتَبَيَّنَ الصِّدْقُ .

لَمْ يَبْقَ شَكٌّ فِي بَراءَةِ «أَبِي عَوْفٍ» مِنْ فِرْيَةِ السّاحِرِ .

تَجَلَّى لِلْعِيانِ إِفْكُ السّاحِرِ ، وَبَراءَةُ الْجَزّارِ ، بَعْدَ فَواتِ الْأَوانِ : بَعْدَ أَنْ ثُلِمَ شَرَفُهُ ، وَلُوِّثَتْ سُمْعَتُهُ .

عَرَفَ النّاسُ آخِرَ الْأَمْرِ حَقِيقَةَ السّاحِرِ الْأَفّاكِ .

أَدْرَكُوا أَنَّهُ ساحِرٌ أَثِيمٌ وَشَيْطانٌ رَجِيمٌ ؛ وَإِنْ دَلَّ مَظْهَرُهُ عَلَى أَنَّهُ مُحْسِنٌ رَحِيمٌ ، وَمَلَكٌ كَرِيمٌ !

عَوْدَةُ الْحِمارِ

١ – بَعْدَ رُبْعِ قَرْنٍ

شَهِدْتُ الْيَوْمَ جِنازَةَ « أَبِي عَوْفٍ » ، بَعْدَ أَنْ مَرَّ عَلَى هٰذا الْحادِثِ رُبْعُ قَرْنٍ .

تَدافَعَتِ الذِّكْرَياتُ . تَزاحَمَتِ الْعِبَرُ والْعِظاتُ .

لَمْ يَكُنْ لِلْمُشَيِّعِينَ حَدِيثٌ غَيْرُ قِصَّةِ « أَبِي عَوْفٍ » مَعَ السَّاحِرِ الْأَفَّاكِ (الْمُبْطِلِ الْكَذَّابِ) .

ذَكَّرَتْهُمْ جِنازَةُ الطَّاهِرِ الْبَرِيءِ ، ما لَقِيَهُ مِنْ كَيْدِ الْآثِمِ الْمُسِيءِ .

أَمَّا أَنا : فَكانَ لِهٰذِهِ الْقِصَّةِ أَثَرٌ - فِي حَياتِي - بَعِيدُ الْغَوْرِ .

نُقِشَتْ حَوادِثُها فِي ذاكِرَتِي نَقْشًا .

تَعَلَّمْتُ مِنْها كَيْفَ يَفْتِكُ الْأَشْرارُ بِالْأَطْهارِ .

عَرَفْتُ - بَعْدَها - كَيْفَ أَتَحامَى الاِشْتِباكَ مَعَ الْحُمَقاءِ ؛ وَما أَكْثَرَ مَنْ لَقِيتُ مِنْهُمْ !

صانَتْنِي مِنَ الْوُقُوعِ فِي مِثْلِ الْوَرْطَةِ (الْهَلَكَةِ) الَّتِي تَرَدَّى فِيها « أَبُو عَوْفٍ » . ما كانَ أَنْفَعَ ما تَحْوِيهِ مِنْ دُرُوسٍ وَعِظاتٍ !

أَخَذْت نَفْسِي - بَعْدَ هٰذا الْحادِثِ - أَلَّا أَشْتَبِكَ مَعَ أَحَدٍ مِنَ الأَشْرارِ ، فِي مُماَرَةٍ وَلَجاجٍ .

وَجَدْتُ فِي التَّغابِي مَهْرَبًا مِنَ الاِشْتِباكِ فِي صِراعٍ لا يَكادُ يَنْتَهِي بِخَيْرٍ .

٢ - تَغافُلُ الذَّكِيِّ

كانَ مِنْ آثارِ هٰذِهِ الْقِصَّةِ أَنِ اتَّهَمَنِي بَعْضُ الأَغْرارِ ، بِالْغَباءِ والْغَفْلَةِ .

لَمْ أُبالِ هٰذِهِ التُّهَمَةَ ، وَلَمْ أَجْزَعْ مِنْها ، عَلَى أَيِّ حالٍ .

آثَرْتُ (رَضِيتُ واخْتَرْتُ) أَنْ أُتَّهَمَ بِالْغَفْلَةِ ، عَلَى أَنْ أَزُجَّ بِنَفْسِي فِي مُخْرِجاتٍ لا أَدْرِي كَيْفَ أَخْرُجُ مِنْها .

لَمْ أَنْسَ الْحِكْمَةَ الَّتِي رَواها أَبِي عَنْ « مُعاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيانَ » .

حَدَّثَنِي أَبِي : أَنَّهُ شَهِدَ فِي صَدْرِ صِباهُ حِوارًا بَيْنَ « عَمْرِو ابْنِ الْعاصِ » وَ « مُعاوِيَةَ » .

كانَ حِوارًا عَجَبًا :

قالَ « ابْنُ الْعاصِ » يُفاخِرُ « مُعاوِيَةَ » بِلَباقَتِهِ وَسُرْعَةِ خاطِرِهِ :

« ما دَخَلْتُ مَأْزِقًا قَطُّ إِلَّا عَرَفْتُ كَيْفَ أَخْرُجُ مِنْهُ ! »

فَكَيْفَ كانَ جَوابُ «مُعاوِيَةَ» ؟!

كانَ مِنْ أَبْرَعِ ما وَعاهُ التَّارِيخُ مِنْ إِجاباتٍ .

قالَ «مُعاوِيَةُ» : «أَمَّا أَنا : فَما دَخَلْتُ مَأْزِقًا قَطُّ !»

* * *

لَمْ أَنْسَ هٰذِهِ الْحِكْمَةَ النَّادِرَةَ ، كَما لَمْ أَنْسَ تِلْكَ الْمُشاجَرَةَ الْخاسِرَةَ .

كانَ يَحْلُو لِي - بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ - أَنْ أُقابِلَ بَيْنَ حِلْمِ «مُعاوِيَةَ» وَتَسَرُّعِ «أَبِي عَوْفٍ» .

كانَ لَهُما - فِي نَفْسِي - أَبْلَغُ الْأَثَرِ .

شَدَّ ما أَفَدْتُ مِنْهُما ، وانْتَفَعْتُ بِهِما !

٣ — مُؤامَرَةُ اللِّصَّيْنِ

أَذْكُرُ - عَلَى سَبِيلِ الْمِثالِ - أَنَّنِي كُنْتُ أَمْشِي ، ذاتَ يَوْمٍ ، فِي الْفَلاةِ .

أَحْسَسْتُ وَقْعَ خُطُواتٍ تَقْتَرِبُ مِنِّي .

سَمِعْتُ هَمْسًا يَدُورُ بَيْنَ اثْنَيْنِ . لَمْ أَلْتَفِتْ إِلَى الْوَراءِ .

أَرْهَفْتُ أُذُنِي . أَدْرَكْتُ أَنَّ لِصَّيْنِ يَأْتَمِرانِ بِي لِيَسْرِقانِي .



خَشِيتُ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْهُمَا مَكْرُوهٌ .

ذَكَرْتُ قِصَّةَ « أَبِي عَوْفٍ » مَعَ التَّاجِرِ الْأَفَّاكِ .

لَمْ يَكُنْ مَعِي شَيْءٌ يُسْرَقُ غَيْرُ الْحِمَارِ .

لَجَأْتُ إِلَى الْمُصَانَعَةِ : تَجَاهَلْتُ اللِّصَّيْنِ . أَغْفَلْتُ شَأْنَهُمَا .

تَصَامَمْتُ (تَظَاهَرْتُ بِالصَّمَمِ) عَنْ سَمَاعِ حِوَارِهِمَا .

٤ – تَجاهُلُ العارِفِ



تَشاغَلْتُ عَنْهُما بِمُحادَثَةِ نَفْسِى تارَةً ، وَبِالْغِناءِ تارَةً أُخْرَى :
هَيَّأْتُ لَهُما الْفُرْصَةَ لِسَرِقَةِ الْحِمارِ .

بَعْدَ قَليلٍ شَعَرْتُ أَنَّ أَحَدَ اللِّصَّيْنِ يَفُكُّ مِقْوَدَ حِمارِى .
عَرَفْتُ أَنَّهُ يَضَعُ مِقْوَدَ الْحِمارِ فِى عُنُقِهِ . شَعَرْتُ أَنَّهُ يُسَلِّمُ
الْحِمارَ إِلَى صاحِبِهِ . تَغافَلْتُ عَمّا قالا . تَغاضَيْتُ عَمّا فَعَلا .

جَرَيْتُ فِي هٰــذِهِ الْمَرَّةِ ـ عَلَى مَأْلُوفِ عادَتِي ـ مُتَبالِهًا (مُتَظاهِرًا بِالْغَفْلَةِ والْبَلَهِ) .

واصَلْتُ السَّيْرَ حَتَّى خَرَجْتُ مِنَ الْفَلاةِ ، واقْـتَرَبْتُ مِنَ الْعُمْرانِ .

٥ — جَوابُ اللِّصِّ

شَعَرْتُ بِالطُّمَأْنِينَةِ ، حِينَ بَلَغْتُ الْمَدِينَةَ .

أَمِنْتُ بَطْشَ اللِّصِّ . اِلْتَفَتُّ إِلَى الْخَلْفِ .

أَبْصَرْتُ مِقْوَدَ الْحِمارِ فِي عُنُقِ اللِّصِّ الْخَبِيثِ .

شَهِدْتُ اللِّصَّ الْخَبِيثَ يَرْتَضِي لِنَفْسِهِ أَنْ يُصْبِحَ بَدِيلًا مِنْ حِمارِيَ الطَّيِّبِ الْقَلْبِ .

لَمْ أَشَأْ إِحْراجَ اللِّصِّ تَظاهَرْتُ بِالْحَيْرَةِ والدَّهَشِ .

رَأَيْتُ أَنْ أُهَيِّئَ لَهُ سَبِيلَ الْخَلاصِ .

أَعْدَدْتُ لَهُ جَوابَ سُؤالِي .

قُلْتُ لَهُ مُتَغابِيًا : « أَحِمارٌ مَــكانَ إِنْسانٍ ؟!

هٰذا أَعْجَبُ ما شَهِدَتْهُ عَيْنانِ !

تُرَى أَيْنَ ذَهَبَ حِمارِي ؟

بِرَبِّكَ إِلَّا ما خَبَّرْتَنِي كَيْفَ حَلَلْتَ مَــكانَهُ ؟ »

* * *



ابْتَهَجَ اللِّصُّ بِما سَمِعَ . حَسِبَنِي - لِغَباوَتِهِ - غَبِيًّا .

أَجابَنِي مُتَخابِثًا :

« إِنَّ قِصَّتِي - أَيُّها السَّيِّدُ الْكَرِيمُ - غايَةٌ فِي الْغَرابَةِ .

قِصَّةٌ لا تَكادُ تُصَدَّقُ ، لَوْلا أَنَّها حَقِيقَةٌ راهِنَةٌ .

أَكانَ يُمْكِنُ أَنْ يَخْطُرَ بِبالِكَ أَنَّنِي آدَمِيٌّ مِثْلُكَ ؟ »

* * *

تظاهرت بالدهشة مما سمعت . لم أظهر السخرية بما افتراه اللص . قلت متبالهًا :

« ما أعجب ما أسمع ! إنها - كما تقول - قصة لا تخطر على بال إنسان ! فكيف تغيّرت ؟

كيف انقلبت من الصورة الآدمية إلى الصورة الحمارية ؟ »

قال : « لذلك قصة عجيبة . »

قلت : « هاتها ، فما أشوقني إلى سماعها ! »

* * *

قال : « فيما مضى من عمرى : أسرفت في الإساءة إلى أمى

لم أكف يومًا عن إغضابها . لم أبال غيظها ولا سخطها

آخر الأمر : نفد صبرها ، وقسا على قلبها .

ابتهلت أمى إلى الله - داعية - أن يمسخنى حمارًا .

استجاب الله دعاءها .

عقاب لم يدر بخلدى ! أدهشنى وحيرنى !

ماذا أصنع ؟ خرجت هائمًا في الطريق

لقيني بعض الأشرار خطفنى واحتجزنى .

في اليوم التالى : ذهب بى إلى السوق ، فباعنى . . .

كانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّى أَنِ اشْتَرَيْتَنِى أَنْتَ مِنْهُ .

ظَلِلْتُ أَخْدُمُكَ - فِى أَمانةٍ وَإِخْلاصٍ - إِلَى الْيَوْمِ .

لَعَلَّ ذٰلِكَ شَفَعَ لِى عِنْدَ اللّٰهِ ، فَغَفَرَ لِى ما أَسْلَفْتُهُ لِأُمِّى مِنْ إِساءَةٍ وَعِصْيانٍ

لَيْسَ أَدَلَّ عَلَى صِحَّةِ ما أَقُولُ مِنْ أَنَّ اللّٰهَ قَبِلَ تَوْبَتِى ، فَرَدَّنِى إِلَى آدَمِيَّتِى . »

* * *

تَظاهَرْتُ بِتَصْدِيقِ ما رَواهُ الْكَذّابُ مِنْ فُنونِ الإِفْكِ والْبُهْتانِ .

قُلْتُ لَهُ مُتَغابِيًا (مُتَظاهِرًا بِالْغَباءِ) :

« فِلْبِي مَعَكَ . بِرَبِّكَ إِلّا ما خَبَّرْتَنِي : كَيْفَ تَلَقَّيْتَ هٰذِهِ الْمُفاجَأَةَ السَّعِيدَةَ ؟ »

قالَ : « ظَلِلْتُ أُفَكِّرُ - طولَ هٰذا الطَّرِيقِ - فِيما حَدَثَ .

أَبِتُّ مُطْرِقًا أَسْتَعِيدُ ما مَرَّ بِى مِنْ عَجائِبِ الْحَياةِ .

لَمْ أَشُكَّ فِى أَنَّ أُمِّى عاوَدَها الْحَنِينُ إِلَى وَلَدِها .

أَيْقَنْتُ أَنَّها صَفَحَتْ عَنْ وَلَدِها الْعاقِّ ، وَعَمَدَتْ - آخِرَ الْأَمْرِ - إِلَى نِسْيانِ إِساءَتِى وَغُفْرانِ مَعْصِيَتِى ، داعِيَةً اللّٰهَ - سُبْحانَهُ - أَنْ يُعِيدَنِى إِلَى آدَمِيَّتِى .

لا شَكَّ فِي أَنَّ اللهَ اسْتَجابَ دُعاءَها مَرَّةً أُخْرَى .

حَمْدًا لِلهِ . شُكْرًا لِأُمِّي ! لَوْلا دَعَواتُها ، لَما خَلَعْتُ عَنِّي صُورَةَ الْحِمارِيَّةِ ، وَلَما اسْتَرْدَدْتُ صُورَةَ الْآدَمِيَّةِ ! »

٦ – نَصِيحَةُ «أَبِي الْغُصْنِ»

كُنْتُ أُصْغِي إِلَى حَدِيثِ هٰذا الْكَيْذُبانِ الْغَبِيِّ ، دُونَ أَنْ أُظْهِرَ ما أُخْفِيهِ لَهُ مِنْ زِرايَةٍ واحْتِقارٍ .

تَمَثَّلَتْ لِي – فِي الْحالِ – قِصَّةُ السَّاحِرِ وَالْجَزَّارِ .

قُلْتُ مُتَبالِهًا :

« لَعَلَّكَ لا تَنْسَى هٰذا الدَّرْسَ الْقاسِيَ ، فِي قابِلِ أَيَّامِكَ .

لَعَلَّكَ تَذْكُرُ هٰذا الْعِقابَ الْإِلٰهِيَّ طَوالَ حَياتِكَ .

آمُلُ أَنْ تُعاهِدَنِي – مُنْذُ الْيَوْمِ – عَلَى أَنْ تَتَحَرَّى مَرْضاةَ أُمِّكَ ، وَتَبْذُلَ فِي هٰذا السَّبِيلِ قُصارَى جُهْدِكَ ؟ »

* * *

فَرِحَ اللِّصُّ بِما سَمِعَ .

عاهَدَنِي عَلَى تَحْقِيقِ رَجائِي .

فارَقَنِي وَهُوَ يَعْتَقِدُ فِي قَرارَةِ نَفْسِهِ أَنَّ « جُحا » كانَ – بِلا رَيْبٍ – أَكْبَرَ مُغَفَّلٍ لَقِيَهُ فِي حَياتِهِ .

٧ – فِي أُذُنِ الحِمارِ



ذَهَبْتُ إِلَى سُوقِ المَدِينَةِ بَعْدَ أَيَّامٍ .

لَقِيتُ حِمارِي فَجْأَةً ! كانَ اللِّصّانِ يَعْرِضانِهِ لِلْبَيْعِ .

رَأَى اللِّصّانِ قادِمًا عَلَيْهِما . اِسْتَخْفَى أَوَّلُهُما .

أَسْلَمَ الحِمارَ إِلَى شَرِيكِهِ ، لِيُتِمَّ بَيْعَهُ .

اِقْتَرَبْتُ مِنَ الحِمارِ . أَدْنَيْتُ فَمِي مِنْ إِحْدَى أُذُنَيْهِ .

تَظاهَرْتُ بِأَنَّنِي أُسِرُّ إِلَيْهِ حَدِيثًا مُوجَزًا .

أَمْ أَقِفْ عِنْدَ هٰذا الْحَـــدِّ فِي تَهَكُّمِي بِاللِّصِّ وَسُخْرِيَتِي . اِقْتَرَبْتُ مِنَ الْحِمارِ عَلَى مَشْهَدٍ مِنَ الْحاضِرِينَ أَدْنَيْتُ فَمِي مِنْ أُذُنِهِ . تَظاهَرْتُ بِأَنَّنِي أُوَشْوِشُ الْحِمارَ . قُلْتُ لَهُ بِصَوْتٍ كانَ - عَلَى خُفُوتِهِ - بَيِّنَ الْجَرْسِ ، واضِحَ النَّـبَراتِ :

« وَيْحَكَ ، أَلَمْ أُحَذِّرْكَ - يا صاحِ - هٰذِهِ الْعاقِبَةَ ؟

لِماذا رَجَعْتَ إِلَى إِغْضابِ أُمِّكَ ؟

ها أَنْتَ ذا تَرَى عاقِبَةَ عِنادِكَ .

أَنْتَ الْمَلُومُ عَلَى كُلِّ حالٍ . »

٨ - هَرَبُ اللِّصِّ

اِشْتَدَّتْ دَهْشَةُ النّاسِ مِمّا رَأَوْا .

أَقْبَلُوا عَلَيَّ يَتَعَجَّبُونَ : يَتَضاحَكُونَ وَيَتَغامَزُونَ .

سَأَلَنِي النّاسُ مُتَعَجِّبِينَ :

« كَيْفَ تُوَشْوِشُ الْحِمارَ ، يا جُحا ؟ ! »

دَفَعَهُمُ الْفُضُولُ إِلَى سُؤالِي عَمّا هَمَسْتُ بِهِ فِي أُذُنِ الْحِمارِ .

قَصَصْتُ عَلَيْهِمْ قِصَّتِي ، بِمَرْأًى مِنَ اللِّصِّ وَمَسْمَعٍ .

تَوَجَّهْتُ إِلَيْهِمْ فِي خِتامِها قائِلًا :

« هأَنَذا أَجِدُ صاحِبِي يَنْتَقِلُ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ صُورَتِهِ الآدَمِيَّةِ إِلَى صُورَتِهِ الحِمارِيَّةِ .

يا لَهُ مِنْ غَبِيٍّ ، تاعِسٍ شَقِيٍّ !

لا رَيْبَ أَنَّهُ أَغْضَبَ أُمَّهُ مَرّاتٍ ، فَصَبَّتْ عَلَيْهِ اللَّعَناتِ .

لَوْ أَنَّهُ حافَظَ عَلَى وَعْدِهِ ، وَلَمْ يَتَنَكَّرْ لِعَهْدِهِ ، لَبَقِيَ مُحْتَفِظًا بِآدَمِيَّتِهِ ، مُتَمَتِّعًا بِإِنْسانِيَّتِهِ .

لٰكِنَّهُ أَبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ حِمارًا ، فَكانَ لَهُ ما أَرادَ ! »

* * *

اِسْتَغْرَبَ السّامِعُونَ (أَغْرَقُوا فِي الضَّحِكِ) .

شَعَرَ اللِّصُّ بِالْحَرَجِ .

لَمْ يُطِقِ الْبَقاءَ بَعْدَ أَنْ ذاعَ سِرُّهُ ، وَافْتَضَحَ أَمْرُهُ .

تَسَلَّلَ هارِبًا . تَرَكَ لِي حِمارِيَ الْعَزِيزَ .

لَمْ أَتَعَرَّضْ لِشَيْءٍ مِمّا تَعَرَّضَ لَهُ « أَبُو عَوْفٍ » .

رَجَعْتُ إِلَى دارِي ، مُبْتَهِجًا بِصُحْبَةِ حِمارِي !

قَضَيْتُ يَوْمِي راضِيًا مَجْبُورًا ، قَرِيرَ الْعَيْنِ مَسْرُورًا .

مَعَ الأَشْرار

١ - مِقْوَدُ الحِمارِ

ذاتَ يَوْمٍ : سَرَقَ بَعْضُ الأَشْرارِ مِقْوَدَ حِمارِى .

عَبَثًا واصَلْتُ الْبَحْثَ عَنِ الْمِقْوَدِ .

قَطَعْتُ الأَمَلَ مِنَ الْعُثورِ عَلَيْهِ . أَيْقَنْتُ أَنَّهُ سُرِقَ .

* * *

بَعْدَ أُسْبوعٍ : كُنْتُ عائِدًا فى طَريقِى إِلَى الْبَيْتِ .

شَهِدْتُ مِقْوَدَ حِمارِى فى رَأْسِ حِمارٍ آخَرَ .

كانَ الحِمارُ أَكْبَرَ مِنْ حِمارِى جِسْمًا .

كانَ السّارِقُ أَكْبَرَ مِنِّى جِسْمًا ، وأَشَدَّ بَأْسًا !

كانَ عِرْبِيدًا سِكِّيرًا . كانَ باطِشًا شِرِّيرًا .

لَمْ يَكَدْ يَرانِى ، حَتّى تَمَلَّكَهُ الْغَضَبُ . تَوَقَّعْتُ مِنْهُ شَرًّا ، حِينَ رَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَىَّ شَزْرًا (بِمُؤْخِرِ عَيْنِهِ ، نَظْرَةَ الْغَضْبانِ) .

حَضَرَتْنِى قِصَّةُ « أَبِى عَوْفٍ » . جَرَيْتُ عَلَى مَأْلُوفِ عادَتِى : بادَرْتُهُ بِابْتِسامَتِى . شَغَفْتُها بِدُعابَتِى

تَبالَهْتُ وَتَغابَيْتُ (تَظاهَرْتُ بِالْبَلَهِ والْغَباءِ) . وَقَفْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِى ، بِمَشْهَدٍ مِنَ اللِّصِّ وَمَسْمَعٍ .

رُحْتُ أَتَساءَلُ قائِلًا :

« ما أَعْجَبَ ما أَرَى ! كَيْفَ تَأَتَّى هٰذا التَّناقُضُ !

هٰذا رَأْسُ حِمارِي : رَأْسُ حِمارِي بِلا رَيْبٍ !

الْمِقْوَدُ عَلَى رَأْسِهِ ! هٰذا دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ ما أَقُولُ .

لَوْلا أَنَّنِي أَرَى مِقْوَدَ حِمارِي ، لَكانَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ هٰذا رَأْسَ حِمارٍ آخَرَ .

لٰكِنِّي لا أَرَى بَقِيَّةَ الْحِمارِ ؟! تُرَى أَيْنَ ذَهَبَ ؟

هٰذا جِسْمُ حِمارٍ آخَرَ : حِمارٍ غَيْرِ حِمارِي !

دَلِيلِي عَلَى ذٰلِكَ : أَنَّ بَرْذَعَةَ حِمارِي لَيْسَتْ عَلَيْهِ .

عَلَيْهِ بَرْذَعَةٌ أُخْرَى . يا لَلْعَجَبِ الْعاجِبِ !

كَيْفَ يَبْقَى الرَّأْسُ وَيَتَغَيَّرُ الْجِسْمُ ؟ كَيْفَ اسْتَطاعَ رَأْسُ حِمارِي ، أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى جِسْمِ حِمارٍ آخَرَ ؟! »

كانَتْ مُفارَقَةً مُفاجِئَةً ، لَمْ يَتَوَقَّعْها الْخَبِيثُ . كادَ اللِّصُّ يَسْتَلْقِي عَلَى قَفاهُ مِنْ شِدَّةِ الضَّحِكِ . كانَ لِلدُّعابَةِ الْباسِمَةِ - فِي نَفْسِهِ - مِثْلُ السِّحْرِ . اِنْطَفَأَتْ نارُ حِقْدِهِ . أَصْبَحَتْ بَرْدًا وَسَلامًا . تَحَوَّلَ عُبُوسُهُ ابْتِسامًا . رَبَّتَ كَتِفِي مُتَوَدِّدًا حانِيًا ، وَأَعادَ إِلَيَّ الْمِقْوَدَ باسِمًا راضِيًا !

٢ - سارِقُ الْبيْتِ

ذاتَ لَيْلَةٍ :

اسْتَيْقَظْتُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ عَلَى صَوْتِ لِصٍّ تَسَلَّلَ إِلَى بَيْتِي :

لَمْ أُفَكِّرْ فِي إِزْعاجِ اللِّصِّ .

صَبَرْتُ عَلَيْهِ . جَمَعَ ما فِي الْبَيْتِ مِنْ ثِياب

رَأَيْتُهُ يَضَعُ ما سَرَقَ فِي مُلاءَةٍ كَبِيرَةٍ .

شاهَدْتُهُ يَحْمِلُهُ عَلَى ظَهْرِهِ ، ثُمَّ يَخْرُجُ .

* * *

تَسَلَّلْتُ فِي أَثَرِ اللِّصِّ مُقْتَفِيًا خُطُواتِهِ

كانَتْ لَيْلَةً مِنْ لَيالِي الشِّتاءِ . لَمْ تَكُنْ لَيْلَةَ بَدْرٍ وَلا لَيْلَةَ سَواء : (لَيْلَةَ النِّصْفِ أَوِ الَّتِي تَلِيها) .

لَمْ يَفْطُنِ اللِّصُّ إِلَيَّ . كانَ يَتَعَجَّلُ الْعَوْدَةَ

ظَلِلْتُ أَتْبَعُهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَيْتِهِ

حانَتْ مِنَ اللِّصِّ الْتِفاتَةٌ قَبْلَ الدُّخُولِ .

ظَهَرَ عَلَى وَجْهِهِ الْغَيْظُ ، حِينَ رَآنِي نَظَرَ إِلَيَّ شَزْرًا .

سَأَلَنِي مُتَحَدِّيًا : « ماذا جاءَ بِكَ إِلَى هُنا ؟ »

* * *



تَجاهَلْتُ غَضَبَهُ وَتَحَدِّيَهُ .

قلْتُ لَهُ مُداعِبًا :

« جِئْتُ لِأَقُومَ بِواجِبِ الشُّكْرِ ! »

سَأَلَنِي مُتَعَجِّبًا :

« ماذا تَعْنِي ؟ لَسْتُ أَفْهَمُ ما تَقولُ ! »

قُلْتُ لَهُ مُتَغابِيًا :

« مُنْذُ أَيَّامٍ ، عَزَمْتُ عَلَى تَرْكِ مَسْكَنِي .

كاشَفْتُ بَعْضَ أَصْحابِي بِما انْتَوَيْتُ .

سَأَلْتُهُ أَنْ يَبْحَثَ لِي عَنْ مَسْكَنٍ آخَرَ

تَحَقَّقَ رَجائِي فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ .

اِمْتَلَأَتْ نَفْسِي فَرَحًا ، حِينَ رَأَيْتُكَ تَحْضُرُ إِلَى دارِي ، وَتَنْقُلُ ما فِيها ؟

أَدْرَكْتُ أَنَّ أُمْنِيَتِي تَحَقَّقَتْ عَلَى يَدَيْكَ !

لَمْ تَشَأْ أَنْ تُصْحِيَنِي مِنْ نَوْمِي الْعَمِيقِ .

أَبَى عَلَيْكَ تَلَطُّفُكَ أَنْ تُقْلِقَنِي .

لَمْ يُساوِرْنِي شَكٌّ فِي أَنَّكَ سَتَعُودُ إِلَى بَيْتِي فِي الصَّباحِ لِتَدُلَّنِي عَلَى الْمَسْكَنِ الْجَدِيدِ !

رَأَيْتُ أَنْ أُرِيحَكَ مِنْ عَناءِ الْحُضُورِ مَرَّةً أُخْرَى .

قُلْتُ فِي نَفْسِي : خَيْرُ الْبِرِّ عاجِلُهُ

لَمْ أُضِعِ الْوَقْتَ عَبَثًا . اِقْتَفَيْتُ خُطُواتِكَ ، لِأَعْرِفَ مَكانَ الْمَسْكَنِ الَّذِي اخْتَرْتَهُ لِي . »

* * *



وَجَمَ اللِّصُّ . لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَقُولُ !!

بادَرْتُهُ قائِلاً : « أَعْجَبَني - واللهِ - مَوْقِعُ الدّارِ : فَلا أَقَلَّ مِنْ شُكْرِكَ عَلَى حُسْنِ الِاخْتِيارِ ! »

أَعْجَبَ اللِّصَّ حِيلَتي ، وَسُرَّ مِنْ إجابَتي .

لَمْ يَزِدِ اللِّصُّ عَلَى الِابْتِسامِ

أَعادَ إِلَيَّ ما سَرَقَهُ مِنْ بَيْتي ، دُونَ أَنْ يُفَكِّرَ في أَذِيَّتي !!

٣ – فِي الْخِزانَةِ

كانَتْ لَيْلَةً حالِكَةَ السَّوادِ :

شَعَرْتُ بِحَرَكَةٍ غَرِيبَةٍ فِي بَيْتِي

عَرَفْتُ أَنَّ لِصًّا جَدِيدًا يُحاوِلُ سَرِقَتِي .

اِسْتَوْلَى عَلَيَّ الْخَوْفُ .

خَشِيتُ أَنْ يَنالَنِي مِنْهُ سُوءٌ

عَمَدْتُ إِلَى قِطْعَةٍ مِنْ حَصِيرٍ قَدِيمٍ ، مُسْنَدَةٍ إِلَى حائِطِ الدّارِ .

تَلَفَّفْتُ فِيها .

كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الدّارَ خالِيَةٌ مِمّا يُسْرَقُ ، والْحَمْدُ لِلّٰهِ

* * *

عَبَثًا طالَ بَحْثُ اللِّصِّ .

لَمْ يَجِدْ فِي الدّارِ شَيْئًا يَسْرِقُهُ .

لَمْ يَظْفَرْ مِنْ بَحْثِهِ بِطائِلٍ .

عَزَمَ اللِّصُّ عَلَى الْخُرُوجِ .

حانَتْ مِنْهُ الْتِفاتَةٌ .

أَحَسَّ حَرَكَةً خَفِيفَةً .

تَنَبَّهَ إِلَى الْحَصِيرِ الَّذِي لَفَفْتُ نَفْسِي فِيهِ .

وَتَحَ الْحَصِيرَ الْمَطْوِيَّ .

رَآنِي مُخْتَبِئًا فِيهِ .

دَهِشَ اللِّصُّ مِمَّا رَأَى . سَأَلَنِي مُتَعَجِّبًا :

« ماذا دَفَعَكَ إِلَى الِاخْتِبَاءِ ؟ »

لَجَأْتُ إِلَى مُدَاعَبَةِ اللِّصِّ .

قُلْتُ لَهُ عَلَى الْفَوْرِ :

« لا تُؤَاخِذْنِي - أَيُّهَا الزَّائِرُ الْكَرِيمُ - إِذَا دَفَعَنِي الْخَجَلُ وَالْحَيَاءُ ، إِلَى التَّوَارِي وَالِانْزِوَاءِ . »

قالَ : « أَفْصِحْ عَمَّا تُرِيدُ ، فَمَا أَفْهَمُ ماذا تَعْنِي ! »

قُلْتُ : « عَلِمْتُ أَنَّكَ لَنْ تَجِدَ فِي دَارِي شَيْئًا يُسْرَقُ

شَعَرْتُ لِذَلِكَ بِالْحَرَجِ .

لَمْ أَدْرِ كَيْفَ أَلْقَاكَ ، وَلا بِأَيِّ وَجْهٍ أَرَاكَ ؟!

تَلَفَّفْتُ فِي الْحَصِيرِ ، حَتَّى لا أُوَاجِهَ هَذَا الْمَصِيرَ . »

ابْتَسَمَ اللِّصُّ لِدُعَابَتِي وَابْتَهَجَ ، ثُمَّ وَدَّعَنِي وَخَرَجَ .

٤ – جُهْدٌ ضائِعٌ

فِي لَيْلَةِ الْعِيدِ :

شَعَرْتُ بِلِصٍّ يَتَسَلَّلُ إِلَى دارِي .

فِي هٰذِهِ الْمَرَّةِ : فاجَأَتْنِي نَوْبَةٌ مِنْ بَراعَةٍ وَذَكاءٍ .

لا أَدْرِي كَيْفَ كانَ ذٰلِكَ . لٰكِنَّهُ حَصَلَ !

لَعَلَّ مَرَدَّ ذٰلِكَ أَنَّنِي أَلِفْتُ لِقاءَ اللُّصُوصِ ، وَمَرَنْتُ عَلَى مُلاطَفَتِهِمْ ، والنَّجاةِ مِنْ شُرُورِهِمْ ، بِما أَبْتَكِرُهُ فِي هٰذِهِ الْمَواقِفِ الحاسِمَةِ مِنْ فُنُونِ الدُّعابَةِ الْباسِمَةِ !

كانَتْ حِيلَةً طَرِيفَةً لا عَهْدَ لِي بِمِثْلِها !

حَلا لِي أَنْ أَتَهَكَّمَ بِاللِّصِّ ، وَأُبَصِّرَهُ بِفَقْرِي ، دُونَ أَنْ أُعَرِّضَ نَفْسِي لِغَضَبِهِ وانْتِقامِهِ .

بَدَأْتُ أُمَثِّلُ دَوْرَ الحالِمِ الْهاذِي . تَناوَمْتُ (تَظاهَرْتُ بِالنَّوْمِ).

أَوْهَمْتُ اللِّصَّ أَنَّ ما يَسْمَعُهُ مِنِّي ، لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَضْغاثَ أَحْلامٍ (رُؤًى مُخْتَلِطَةً) .

تَظاهَرْتُ أَنَّنِي أَرَى - فِي مَنامِي - لِصًّا يَقْتَحِمُ بَيْتِي فِي ظَلامِ اللَّيْلِ ، ثُمَّ يُطِيلُ الْبَحْثَ عَنْ شَيْءٍ يَسْرِقُهُ ؛ فَلا يَعُودُ - مِنْ بَحْثِهِ - بِطائِلٍ .

تمادَيْتُ فِي تَمْثِيلِ دَوْرِ الحالِمِ الْهاذِي .

رُحْتُ أَرْثِي لِلسَّارِقِ مُتَأَلِّمًا لِما سَيَنْتَهِي إِلَيْهِ سَعْيُهُ مِنْ خَيْبَةٍ وَإِخْفاقٍ ، مُؤَكِّدًا لَهُ أَنَّنِي حاوَلْتُ مِثْلَ مُحاوَلَتِهِ فِي ضَوْءِ النَّهارِ ، فَلَمْ أَسْتَطِعِ الْعُثُورَ عَلَى شَيْءٍ فِي بَيْتِي .

قُلْتُ : « ذٰلِكَ ما حَدَثَ لِي - وَأَنا صاحِبُ الدَّارِ - فِي رائِعَةِ النَّهارِ . وَصاحِبُ الْبَيْتِ - كَما يَقُولُونَ - أَدْرَى بِما فِيهِ ، وَأَعْرَفُ بِما يَحْوِيهِ . فَكَيْفَ يَصْنَعُ الْغَرِيبُ فِي ظَلامِ اللَّيْلِ ! »

وَقَفَ اللِّصُّ يُسَرِّي عَنْ نَفْسِهِ بِما يَسْمَعُ مِنْ هَذَيانٍ ، لَمْ يَسْمَعْ مِثْلَهُ مِنْ إِنْسانٍ ! لا تَسَلْ عَنْ دَهْشَةِ اللِّصِّ مِمَّا سَمِعَ مِنْ فُنُونِ هٰذا الْهُراءِ الْمُخْتَلِطِ !

أَنْصَتَ اللِّصُّ أَحْسَنَ إِنْصاتٍ لِما حَشَوْتُ بِهِ حُلْمِي ، مِنْ صَخَبٍ وَضَوْضاءَ ، وَحِكْمَةٍ وَغَباءٍ ، وَصُراخٍ وَعُواءٍ ، وَبَلَهٍ وَذَكاءٍ .

تَعاظَمَتْهُ الدَّهْشَةُ ، حِينَ خَتَمْتُ الْحُلْمَ الطَّوِيلَ بِالتَّوَدُّدِ إِلَى اللِّصِّ الَّذِي أُخاطِبُهُ فِي مَنامِي ، وَأُناجِيهِ فِي أَحْلامِي ، مُعْتَذِرًا لَهُ مِمَّا لاقاهُ ، مِنْ خَيْبَةِ مَسْعاهُ .

كُنْتُ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ إِعْجابِ اللِّصِّ بِالْحُلْمِ ، وَما حَواهُ مِنْ فُنُونِ الْمُناجاةِ .

إِلَيْكَ أَيُّها الْقارِئُ ما قالَهُ « جُحا » فِي خِتامِ رُؤْياهُ :

« جُهْدٌ خائِبٌ ما أَضْيَعَهْ : ما أَضْيَعَهْ !
أَمَلٌ خادِعٌ ضَلَّلَهُ وَأَطْمَعَهْ : ضَلَّلَهُ وَأَطْمَعَهْ !
قَلْبِي مَعَهْ : قَلْبِي مَعَهْ !

* * *

يا وَيْحَهْ . يا وَيْحَهْ !
يَبْحَثُ فِي الظَّلامْ : فِي الظَّلامْ !
والنَّاسُ نِيـــامْ : نِيامْ . نِيامْ !
يَرُومُ ما لا يُرامْ : مالا يُرامْ !
قَلْبِي مَعَــــهْ : قَلْبِي مَعَهْ !

* * *

يا وَيْحَهْ : يا وَيْحَهْ !
أَطْمَعَهُ كاذِبُ الْأَحْلامْ : كاذِبُ الْأَحْلامْ !
أَضَلَّهُ خادِعُ الْأَوْهامْ . خادِعُ الْأَوْهامْ !
عَمَّ يَبْحَثُ فِي الظَّلامْ : فِي الظَّلامْ !
والنَّاسُ نِيامْ : نِيامْ . نِيامْ !
أَمانِيُّ وَأَحْلامْ : أَحْلامٌ . أَحْلامْ .
أَوْهامٌ جِسامْ : جِسامٌ . جِسامْ .
قَلْبِي مَعَهْ : قَلْبِي مَعَهْ !

* * *

آهٍ لَهُ ، وَواهٍ مِنْهُ ، وَواهٍ عَلَيْهِ !

يا وَيْحَه لَوْ عَلِمَ الْحَقّْ : الْحَقَّ . الْحَقّْ .

يا بُؤسَهُ لَوْ تَبَيَّنَ الصِّدْقْ : الصِّدْقَ الصِّدْقْ .

إِذَنْ تَفطَّرَ قَلْبُهُ وانْشَقّْ : اِنْشَقَّ . انْشَقّْ

وَتَمَيَّزَ مِنَ الْحَسْرَةِ وَطَقّْ : طَقَّ . طَقّْ .

قَلْبِي مَعَهْ : قَلْبِي مَعَهْ !

* * *

مِسْكِينْ : مِسْكِينْ !

ماذا فِي بَيْتِ « جُحا » ، غَيْرُ الْعَدَمْ : الْعَدَمِ الْعَدمْ !

لَيْسَ لِلسّاكِنِ غَيْرُ التَّفَجُّعِ والأَلَمْ : الأَلَمِ . الأَلَمْ !

ماذا يَلْقَى سارِقُ « جُحا » غَيْرَ التَّوَجُّعِ والنَّدَمْ : النَّدَم . النَّدَمْ !

قَلْبِي مَعَهْ : قَلْبِي مَعَهْ !

* * *

وا أَسَفاهْ : وا أَسَفاهْ !

والَهْفَتا لِلسّارِقِ . واحَسْرَتا لِلضَّيْفْ : لِلضَّيْفِ . لِلضَّيْفْ !

الأَرْضُ فِراشُ الزّائِرِ والضَّيْفِ ، وَلِحافُهُما السَّقْفْ : لِحافُهُما السَّقْفْ !

فِي رَبِيعٍ وَخَرِيفٍ ، فِي شِتاءٍ وَصَيْفْ : شِتاءٍ وَصَيْفْ !

قَلْبِي مَعَهْ : قَلْبِي مَعَهْ !

* * *

بَيتُ « جُحا » ؟ !

يأيُّها السَّائِلُ عَنْ بَيتِ « جحا » :

فى بَيتِ « جُحا » فُنُونٌ مِنَ العَجَبْ : العَجَبِ . العَجَبْ !

تَسْأَلُنِي عمَّا يَلْقَى « جُحا » !

يأيُّها السَّائِلُ عمَّا يَلْقَى « جحا » :

شَدَّ ما يُكابِدُ مِنْ أَلْوانِ الشَّقاءِ والتَّعَبْ : الشَّقاءِ والتَّعَبْ !

لَوْلا الصَّبْرُ !

لَوْلا الصَّبْرُ لَهَلَكَ « جُحا » مِمَّا يُكابِدُ فى بَيْتِهْ : فى بَيْتِهِ . فى بَيْتِهْ !

مِنْ بَرْدٍ وَحَرٍّ ، وَعَطَشٍ وَسَغَبْ : عَطَشٍ وَسَغَبْ !

قَلْبِي مَعَهْ : قَلْبِي مَعَهْ .

* * *

طَعامُ « جُحا » !

آهِ لَوْ يَدْرِي اللِّصُّ السَّارِقُ : ماذا يَطْعَمُ « جُحا » ؟ !

لَيْتَهُ يَدْرِي أَنَّ فَطُورَهُ الرَّجاءْ : الرَّجاءِ . الرَّجاءْ !

وَأَنَّ غَداءَهُ الشَّقاءْ : الشَّقاءِ . الشَّقاءْ !

وَأَنَّ عَشاءَهُ الْهَواءْ : الْهَواءِ . الْهَواءْ !

قَلْبِي مَعَهْ : قَلْبِي مَعَهْ ! »

* * *

ظَلِلْتُ أُتابِـعُ هٰذا الْهَذَيانَ ، ساعَةً مِنَ الزَّمانِ

ثُمَّ تَوَقَّفْتُ ، واسْتَسْلَمْتُ لِلصَّمْتِ .

• • •

خَجِلَ اللِّصُّ مِمّا سَمِـعَ

عَرَفَ أَنَّهُ طَمِـعَ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ

وَلَّى وَلَمْ يَرْجِـعْ !

• • •

أَلا لَيْتَ النّاسَ يَذْكُرُونَ حِكْمَةَ صَـديقِي : « عَبْدِ اللهِ
ابْنِ الْمُقَفَّعِ » ، وَيَنْتَفِعُونَ بِقَوْلِهِ :

« إِنَّ الْماءَ مَعَ لِيُونَتِهِ ، يَبْلُغُ ما لا تَبْلُغُ النّارُ مَعَ شِدَّتِها ! »

